

قراءة في الأمثال الشعبية لمنطقة وادي سوف

(ماهيتها، بنيتها، دلالتها).

أ . علي فطحية علي

alifethiza2020@gmail.com

أ . بلقاسم عطاالله

belgacemataallah@gmail.com

جامعة الجزائر (2).

توطئة:

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وعلمه الأسماء كلها، كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾¹. وزوده بالعقل وركب جسمه بكيفية تساعد على العمل والكسب، وهياً له أسباب العيش، والتي تتلخص في الحركة الإيجابية الواعية التي بدونها يموت.

ولعل من أثر هذا ما كنا نلاحظه في الريف الجزائري في مواسم الحصاد، عندما يتعاون مجموعة من الحصادين على حصاد حقل في إطار ما يسمى بـ " التويزة"، وفي لهجة سوف تسمى (العوانة)، حيث يشكلون صفاً مستقيماً مترابطين بجانب بعضهم، كأنهم يؤدون صلاة من قيام وركوع، فرضها واجب التضامن الاجتماعي لإنهاء حصاد الحقل بأسرع ما يمكن، وهم يُنشدون - بالتناوب - جماعياً بعض المدائح والأراجيز، يستعينون بها على ما يعانون، من حرارة شمس الصيف، وتعب العمل ومشقته.

الله، الله يا بو طيبة داويني *** حالي مضرور قولوا يعزم وايجيني.

شبان اصغار طاحوا في القمح أمسبل *** حطوه اقمار والصلاة على النبي.

فالحاصدون في هذه الأجوزة، يستعينون بالله، ثم بالرسول(ص) - بوطيبة . على التغلب على أتعابهم، ويذكر بعضهم بعضاً أنهم شبان صغار، تمكنوا من السيطرة على

حقل القمح ذي السنابل العامرة، حيث حصوده بمناجلهم، ووضعوه على شكل أقمار، تحضيرا للمرحلة الموالية الدرس بواسطة الحيوانات، وتختتم الأرجوزة بالصلاة على النبي (ص)، كما هو الشأن في أغلب ما يترنم به الفلاحون أثناء أداء مثل هذه الأشغال والأعمال الشاقة التي لا يجدي معها شيء إلا التوزيعية (العوانة)، مصحوبة بشيء يجعل الفريق متحدا ومنظما بروح جماعية تحمل هم المسؤولية التي هي على عاتقهم جميعا .

المثل العربي :

تعريف المثل الفصيح في اللغة :

المثل مأخوذ من الجذر الثلاثي : م-ث-ل.

مثل - بكسر الميم - كلمة تسوية، يقال : هذا مثله، ومثله - بالفتح - شبه وشبه بمعنى، قال ابن بري : " الفرق بين المماثلة والمساواة، إن المساواة تكون بين المختلفين في الجنس، والمتفقين، لأن التساوي هو التكافؤ في المقدار، لا يزيد ولا ينقص. وأما المماثلة فلا تكون إلا في المتفقين تقول : نحوه كنحو، وفقهه كفقّه، وكونه وككونه، فإذا قيل : هو مثله على الإطلاق فمعناه أنه سد مسده، وإذا قيل : هو مثله في كذا فهو مساو له في جهة دون جهة" ².

والمثل، الشبه، يقال : مثل ومثل - بكسر الميم وفتحها - وشبه وشبه بمعنى واحد والمثل والمثيل، كالمثل، والجمع أمثال، وهما يتماثلان.

والمثل : الحديث نفسه، وقوله عز وجل ﴿ .. والله المثل الأعلى .. ﴾ ³، جاء في التفسير : " إنه الأجل والأحسن، وأنه قول لا إله إلا الله، وتأويله إن الله أمر بالتوحيد، ونفى كل إله سواه، وهي الأمثال ⁴ .

والمثل الشيء الذي يضرب لشيء مثلا فيجعل مثله. " وفي الصحاح : ما يضرب به الأمثال. قال الجوهرى : ومثل الشيء أيضا صفته. قال ابن سيده : وقوله عز من قائل ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ ⁵. قال الليث : مثلها هو الخير عنها، وقال أبو إسحاق : معناه صفة الجنة أي صفتهم وتعود على المتقين.

مضرب ومورد المثل :

أ/ مضرب المثل :

أما ضرب المثل : فيراد به إطلاقه، واستعماله في الحالات المتجددة، التي تشبه الحالة الأولى، وبمعنى آخر، يضرب المثل في الكلام بذكر حال ما يناسبها، فيظهر من حسننها أو قبحها ما كان خفيا.

ولا يظهر التأثير في النفس بتحقيق شيء وتقبيحه إلا بتشبيهه بما جرى العرف بتحقيقه، ونفور الناس منه، وقد اختلف العلماء اختلافا واسعا، في الأصل الحسي الذي أخذ منه لفظ (ضرب) المثل، فقليل الخباء وهو نصبه وإقامة عمدته، وإثبات طنبه ويكون على هذا، نصب الأمثال للناس بالشهرة، لتستدل عليها خواطريهم، كما تستدل على الشيء المنصوب نواظريهم.⁶

وقيل مأخوذ من ضرب الموعد أي بيانه وتحديدده.

وقيل : مأخوذ من ضرب الدراهم، وهو صوغها بالمطارق، وإحداث أثر خاص فيها، فكأن ضرب المثل تفرع به أذن السامع قرعا، ينفذ أثره إلى قلبه، فيؤثر في النفوس، كما تؤثر المطارق في الدراهم.

وقيل مأخوذ من الضرب بمعنى التثبيت كقوله تعالى : ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾⁷.

ويكون معنى (ضرب المثل) على هذا وضعه موضعه، وإثباته، حيث يصلح له⁸.

ب/ مورد المثل :

ويراد (بمورد المثل) الحالة التي قيل فيها ابتداء، ويراد (بمضربه) الحالات والمواقف المتجددة التي يمكن أن يستعمل فيها المثل لما بين الحالتين من التشابه.

ويرى عبد الحميد قطامش : أن أول من استعمل هذين الاصطلاحين، هو الإمام الزمخشري (ت538هـ)، وذلك بتعريفه للمثل في مقدمة كتابه " مستقصى الأمثال " حيث يقول : " المثل في لغة العرب بمعنى المؤثر، كالشبه والمشبه به، ونظيرهما البدل

والمبدل، والنكل والمنكل للشجاع الذي ينكل بأعدائه، ثم سميت هذه الجملة من القول المقتضبة من وصلها، أو المرسله بذاتها المتسمة بالقبول، المشهورة بالتداول مثلا، لأن المحاضر بها يجعل موردها مثلا ونظيرا لمضربها⁹.

وكذلك استعمله الزمخشري في (كشافه) حيث يقول: "ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثلا".

ويرى عبد الحميد قطامش - أيضا - أنه ليس صحيحا أن كل مثل له حادثة معينة، يربط بها تسمى المورد لأن هناك أمثالا لا ترتبط بأية حادثة، ومنها أقوال الرسول (ص) وبعض الأبيات الشعرية، والأمثال التي أصلها حكم، ثم سارت وشاعت. والصواب عنده أن يطلق المورد على أول استعمال للمثل، سواء أكان حادثة أم لم تكن¹⁰.

تعريف المثل عند علماء البيان :

ومفهومه أخص من مفهومه في أصل اللغة، فهو عندهم استعارة تمثيلية شاع استعمالها مذكرا أو مؤنثا من غير تغيير في العبارة الواردة، فإذا فشلت الاستعارة التمثيلية وشاع استعمالها، ظلت باقية على هيئتها، واستساغها العقلاء لما فيها من دقة تصوير، فصارت مثلا يضرب، كقولهم: "الصيف ضيعت اللبن"، بكسر تاء الفاعل. فقد ورد ذلك في امرأة فرطت في أمر، ثم طلبته بعد فوات الأوان، ثم شاع استعماله وذاع حتى صار مثلا يضرب لكل من طلب أمرا بعد التفريط فيه، وبعد فوات وقته. وكقولهم: "تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن"، لم يعرض له أمر لا يشتهي، تشبيها له برمان السفينة تدفعها الرياح على غير الوجهة التي يريد. وهكذا يقال في جميع الأمثال السائرة نظما ونثرا¹¹.

تعريف المثل الشعبي :

إذا كان المثل العامي هو أحد أشكال التعبير في الأدب الشعبي، فإن تعريفه قد اختلف من دارس إلى آخر. حسب نظرة كل منهم.

أما لغة : فهو لا يختلف عن تعريف المثل الفصيح، فالمثل يطلق على عدة معان هي : الشبه، النظر، العبرة، الصفة، الحجة، النموذج، البيان، الاستثناس، الراحة، الترفيه ...

وأما في الاصطلاح : فهو على نوعين حسب رأي رابح العوي ¹² :

المثل السائر والمثل الفرضي أو الخرافي كالحكايات المثلية في كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع، فالأول هو الذي يعنينا في هذه الدراسة.

نشأة المثل الشعبي :

قد يرتبط تأريخ نشأة المثل الشعبي بتاريخ نشأة اللهجة العامية في الأقطار العربية المختلفة، " فالبعض يرى أن اللغة التي وصلتنا عن الجاهلية وصدر الإسلام، وعصر الدولة الأموية والعباسية، ليست لغة العامة، وإنما لغة الخاصة، لغة الشعراء والكتاب، أما العامة فكانوا يتحدثون لغة أو لهجة عامية، نشأت من تزاوج العربية الفصحى ببعض اللهجات الداخلية عليها، وأن الكتاب كانوا يفصحون بما يرى على ألسنة العامة في كتبهم.

غير أن هذا الرأي لا يؤكد سوى اختلاف لغة البدو عن لغة الحضار، واختلاف بعض الاستخدامات اللغوية في بلد آخر. ولكنها جميعا عن الفصحى التي كتب بها الشعراء والكتاب.

ويرى الكاتب حلمي بدير، أن العامية ازدهرت لما ضعفت الدولة الإسلامية والإمارات العربية، عندما دخلتها لكنة مملوكية، أو العجمة التركية التي أصبحت هي اللغة الرسمية على ألسنة الحكام، ومن والاهم، وأخذت اللهجات العامية تتشكل بعدة تأثيرات، منها اللغة العربية بلغات البلدان المفتوحة، ثم تأثرها بلغات الشعوب التي غزت البلدان العربية أيام ضعفها، كما حصل في بلدان المغرب العربي، التي تأثرت باللغات المحلية كالآمازيغية، في بداية الأمر، ثم بلغات الدول الأوروبية التي غزت هذه البلدان، كالفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية، وربما هذه هي الأسباب وهناك غيرها ما يجعل الدول العربية تختلف لهجاتها عن بعضها البعض، وقد لا يشمل الخلاف كل الظواهر اللغوية، لكن أكثر الخلاف يكون في معاني بعض المفردات العامية وفي مخارج أصوات

الحروف، وفي اللكنة المتحدث بها. " وقد استتبع ذلك خلاف جوهري في لغة الأدب الشعبي، ومن ثم في الأمثال العامية، التي عرفت تطوراً حسب اللهجة العامية في كل إقليم من الأقاليم العربية"¹³.

أنواع المثل العربي :

ذكر الدارسون أن للمثل العربي ثلاثة أنواع وهي أشهر ما يتفق حوله الباحثون والنقاد :

أ. المثل الموجز :

وهو : القول السائر الموجز، الذي يشتمل على معنى صائب، وتشبه فيه حالة مضربه بحالة مورده. وهذا النوع من الأمثال الذي يتبادر إلى الذهن عند إطلاق لفظ (المثل)، وهو الذي عني به جامعو الأمثال، وتدخل فيه الحكم التي فشت بين الناس، كما تدخل فيه الأمثال الشعرية، كقول معن بن أوس :

أعلمه الرماية كل يوم ** فلما اشتد ساعده رماني.

وتدخل فيه الأمثال على وزن (أفعل من) مثل : أجود من حاتم وأكذب من مسيلمة وأعمر من غراب وأخلف من عرقوب.

ب. المثل القياسي :

وهو ذلك السرد الوصفي أو القصصي، الذي يهدف إلى توضيح فكرة، أو البرهنة عليها عن طريق التشبيه أو التمثيل، الذي يقوم على المقارنة والقياس، وهو يتناول أحد أمرين : إما أن يصور نموذجاً من السلوك الإنساني بقصد التأديب، أو التمثيل أو التوضيح، أو أن يجسد مبدأ يتعلق بملكوت الله تعالى ومخلوقاته، " وهو كلام مطنب إذا قورن بسابقه وهو ليس تلخيصاً لقصة، أو إشارة لذلك من باب الاقتباس، وإنما هو قصة بأكملها، أو صورة مجازية مبسطة، جاء بها الحكيم للإيضاح، أو التأديب والتحذير .

وهذا النوع يكاد يكون معدوما في الأمثال العربية، ولكننا نجده بكثرة في القرآن الكريم، وكلام الرسول (ص) ثم نسج حكماء الإسلام أمثالا قياسية على منوال أمثال القرآن والسنة. ويورد عبد المجيد قطامش نماذج من أمثال الإمام علي - كرم الله وجهه - فقد روي عنه قوله : " مثل الدنيا كمثل الحية، لين مسها والسم الناقع في جوفها، يهوي إليها المغرور الجاهل، ويحذرها ذو اللب العاقل ". وقوله : " مثل الإنسان الحصيف مثل الجسم الصلب الكثيف، يسخن بطيئا، وتبرد تلك السخونة بأطول من ذلك الزمان " ¹⁴.

ج. المثل الخرافي :

هو تلك الكلمات الموجزة السائرة، التي أجراها العرب على ألسنة الحيوان، أو بنوها على قصص خرافي نسجوه حوله، وجعلوه فيها يتحدث ويفعل، كما يتحدث الإنسان ويفعل، كما يقصدون بذلك التسلية أو الحث على مكارم الأخلاق، وربما كان هذا النوع بسبب مخالطتهم للحيوان في الحياة البدوية، ويعد صورة من صور الأدب الرمزي، الذي ينسب فيه الأديب الأحداث والحوار إلى الحيوانات والجماد.

ويصنف عبد المجيد قطامش الأمثال العربية التي تتصل بالحرفات صنفين :

صنف أجراه الإنسان على ألسنة الحيوان نفسه، خلال الأحداث التي حاكوها حوله، ومنها الأمثال المشهورة التي أجروها على لسان الضب، حين اختصم إليه الأرنب والثعلب في تمرة وجدها الأرنب، فاختلسها الأرنب! وهذه نماذج أخرى : " في بيته يؤتى الحكم، حلوا جنيت، البادئ أظلم، حرّا انتصر، حدث حديثين امرأة فإن لم تفهم أربعة " .

ومنه قولهم : " إنما أكلت يوم أكل الثور الأسود " وهو من أمثلة كليلية ودمنة.

وصنف العرب أمثالهم على حكايات خرافية، كقولهم : " كرحم الفيل من الحمار " . فهذا المثل مبني على خرافة ' الفيل والحمار '، وخلاصتها أنهما اجتماعا ذات يوم في مرعى، فطرد الفيل الحمار، فقال له الحمار : لماذا تطردني من اشتباك الرحم بيني وبينك؟

فقال الفيل : من أين هذا الرحم؟ فقال الحمار : من أجل أن في غرمولي شبيها من خرطومك، فقبل الفيل هذا القرابة¹⁵.

خصائص المثل الشعبي ومميزاته :

يعد المثل الشعبي من أهم فنون التعبير الشائعة بين الناس، والمتناقلة بين أفراد المجتمع في العصر الواحد، وعبر العصور المتعاقبة.

ومن خصائص المثل الشعبي كما يلخصها بعض الدارسين¹⁶ :

. الطابع الشعبي : الذي يتمثل في أسلوبه الذي يتضمن فلسفة شعبية بسيطة، نابعة من الحياة اليومية الجارية، ولذا فهي تدرك بسهولة، لأنها في دائرة التجربة الشعبية المسوغة بأسلوب شعبي بسيط.

. الطابع التعليمي : وهذا لأن المثل يطلعنا على حقيقة تجربة، لخصت نتائجها في جملة من القول مقتضبة من أصلها، أو مرسله بذاتها، فتلاقي قبول ذبوع يمنحها أثرا في صقل تجاربنا، وتهذيب خبراتنا، وتوسيع أفق معارفنا، وذلك لأننا نعيش - من خلال المثل - التجربة التي عبر عنها أو عن جوهرها بأي شكل كان، كالقول القصير، والقصة والقصيدة ونحن في أثناء ذلك نشعر بهدف المثل، الذي يعكس تجربة فردية.

المثل الشعبي ذو شكل أدبي مكتمل : " بنيته مستقلة بنفسها مكثفية بذاتها ".
المثل الشعبي متنوع التركيب : فهي قد تكون قصيرة، وقد تكون طويلة، وقد تكون مرسله، وقد تكون موقعة (مسجوعة)، كما يمكن أن تكون متسلسلة أو متباعدة، وقد يحدث كأن تكون مصحوبة بجمل معترضة أو مكررة، أو يكون تكوينها منطقيا يربط النتيجة بالمقدمة.

المثل الشعبي غير معرب : يأتي في شكل لغوي لا يحترم الإعراب، وإنما يخضع للذوق الفطري، الذي فرضه الوسط الاجتماعي.

ميزة الأمثال الشعبية أنها تنبع من كل طبقات الشعب.

المثل الشعبي يعيش بين جميع طبقات الشعب، بخلاف "زايلر" الذي يحصره في الطبقتين الدنيا والمتوسطة، أما طبقة المفكرين فتكثر بينها الأقوال المأثورة والحكم.

المثل الشعبي يسمو على الكلام المألوف رغم أنه يعيش في أفواه الشعب.

المثل الشعبي موجز اللفظ : بحيث يدل قليل الكلام فيه على الكثير من الدلالة.

المثل الشعبي مصيب المعنى : فشرط الكلام القليل الدلالة المباشرة على المعنى المراد دون تزيد أو نقصان.

المثل الشعبي يمتاز بحسن التشبيه : وهو مطلب بلاغي، لوجود الكناية وبهذا يصبح قمة البلاغة وقيمتها في الدلالة على المعنى المراد، والصيغة المطلوبة.

ارتباط المثل بمتغيرات البيئة : فيبقى منه ما يتصل بحاضر الحياة الاجتماعية، ويكاد يندثر ما لا يتفق مع طبيعة المتغير الحضاري.

والمثل خلاصة التجارب ومحصول الخبرة.

والمثل يحتوي على معنى يصيب التجربة والفكرة في الصميم.

غير أن هذه الخصائص لا تقتصر على المثل الشعبي وحده، بل يشاركه فيها المثل العربي الفصيح، كما أنها تتعداه إلى أشكال أدبية أخرى كالحكم والأقوال المأثورة والنكتة.

يمتاز المثل الشعبي بالعمق والشاعرية الملتفة في ثوب من الشفافية، مما يسهل حفظه وتداوله على الرغم من أنه لم يخرج من إبداع شاعر، وذلك أن الأمثال فضلا عن أنها حكمة الأمم، ومرآة الشعوب فهي لغة الشعب كله الخاصة والعامة¹⁷.

المثل الشعبي يحمل خصائص النص المفتوح، بحيث نستطيع أن نقرأه قراءات عدة أو نتأوله بتأويلات متباينة، فإذا سمعنا القائل : " اللي يركب جملين يتشرك " ¹⁸، فإن معناه الواضح القريب يحذر من أن يركب الشخص المفرد على جملين في وقت واحد، وإلا سوف يشق جسده إلى نصفين، ولكن ما يقصده المثل هو التحذير من مغبة الزواج بامرأتين، فالركوب على جملين صعب بل مستحيل، يمكن أن يفقد الراكب حياته، وكذلك الزواج بامرأتين.

" يتميز أسلوب المثل الشعبي بتجنب أسلوب الوعظ والتوجيه، أو أسلوب الترغيب والترهيب الذي يلجأ إليه القصاص الشعبي (القصص الشعبي)، ذلك أن طريقة النقد في الأمثال الشعبية تعتمد على التلميح والإيحاء وتتحاشى التجريح والتعريض السافر " ¹⁹.
ومن مميزات الأمثال الشعبية كذلك نقاوتها، وتعلقها بالفصحى، واستنادها إليها، وبعدها عن العجمة والتكلف وعليه يمكن للأمثال أن تحترق حدود الدول، كما هو حادث في المنطقة العربية.

مكانة المثل الشعبي :

نظرا لأن المجتمع الجزائري فيه نسبة عالية من أفراده يعيشون على الإنتاج الزراعي في الأرياف وبعض الأنشطة التجارية والحرفية في المدن والحوضر وقد ورثوا ذلك عن عهد الاحتلال الذي لم يمحض على انقضائه أكثر من 20 سنة، أين وصلت نسبة الأمية بين أفراده غداة الاستقلال ثمانين بالمائة من الإناث، فإن الأدب الشعبي ظل يحتل مكانة مرموقة في الأوساط الاجتماعية وازدهرت فنون التعبير الشفهي العامي في غياب معرفة القراءة والكتابة العامة بين الناس باللغة العربية الفصحى، التي ظلت محظورة التقييم والتداول على النطاق الرسمي ليتبوأ المثل الشعبي مكانة الصدارة بين مختلف الفئات الاجتماعية حيث أصبح الوسيلة المفضلة في الإقناع والتوجيه ولا يقل في درجة حجتيه لدى العامة عن درجة الحديث النبوي الشريف حتى أن العديد من الأمثال والحكم الشعبية قد اختلطت في عرف العامة، من أفراد الشعب بالأحاديث المنسوبة إلى الرسول (ص) وقد ساعد على ذلك تفشي الجهل والأمية وسرعة التصديق وسهولة الإقناع، وهي من السمات الواضحة لدى المجتمعات الأمية بصفة عامة في أقطار العالم ²⁰.

ويرجع تبوء الأمثال الشعبية لهذه المكانة في حياة المجتمع الجزائري التقليدي الناتج عن سهولة تداول هذه الأمثال وبساطة مفهومها وقرعها من عقول العامة من الناس فضلا عن الخاصة الذين لا يستغنون هم أيضا عن الاستشهاد بالمثل الشعبي في الحديث مع الناس في الحياة العامة ²¹.

أسلوبية الأمثال الشعبية :

من الأدباء الذين درسوا الأمثال الشعبية الجزائرية دراسة أسلوبية، الدكتور : عبد الملك مرتاض في كتابه " الأمثال الشعبية الجزائرية ". دراسة في الأمثال الزراعية والاقتصادية بالغرب الجزائري، وفي هذا الكتاب تحدث عن اللغة المستخدمة في الأمثال الشعبية فقال : " ألفاظ الأمثال الجزائرية تأتي في الغالب على ثلاثة أصناف " :

صنف يمثل المادة الأولى في التعبير والتبليغ (التبليغ عن معان ومضامين في الذهن). وهذا الصنف يضرب في الفصحى بسهم وافر، حيث إنه لم يجد في المجموعة التي درسها وعددها (مائة وخمسون) مثلاً، لم يجد إلا ستة وعشرين لفظاً عامياً صريحاً : إما بالدلالة وإما بالوضع. ويعني هذا أن لغة الأمثال الشعبية الجزائرية في معظمها فصيحة. والفصاحة التي يرمي إليها في هذا المقام : أن يكون اللفظ آتياً من أصل معروف في وضع اللغة بفصاحته، بصرف النظر عما يعتريه من نحت أو تحريف : إما في شكله أو في صيغته.

صنف يتصل بالألفاظ المستخدمة، ليس لغاية تعبيرية خالصة، بمعنى ابتغاء تبليغ مضمون ما، بواسطة لفظ أو أي ألفاظ ، وإنما كان لغاية تقنية تتصل بأسلوبية الأمثال الشعبية الجزائرية، ويعني به هذه الألفاظ الخارجية للوحدات أو الجمل، أي الألفاظ التي تمثل الخواتم والفواصل، ووجد بعض هذه الألفاظ قد وضع وضعاً رمزياً للدلالة على شيء بعيد. وكانت الغاية من إخراج هذه الألفاظ عن دلالتها القريبة لظاهرة صوتية.

صنف من الألفاظ وجده يتبوأ من المثل موقعا على الحقيقة، أي يحمل دلالة ظاهرة قريبة لا غير. ويؤكد عبد الملك مرتاض أن معظم الأمثال الشعبية في المجموعة التي تناولها بالدراسة: ذات دلالات أخرى بعيدة، تفهم لدى ضرب المثل. فكل مثل له معنى ظاهر قريب، ومعنى خاص خفي بعيد، ويستدل على ذلك بهذا المثل : " الشيعة للقمح والبنه للملح "، فهذا المثل لا يحمل دلالة اقتصادية، من حيث أن للقمح قيمة اقتصادية عالمية، نتيجة لقيمتها الغذائية الغنية بفضل ما فيه من طاقات وحريرات فحسب، وإنما يحمل دلالة أخرى أبعد لدى إرادة التعبير عن عمل قام به رجل في الظل، وبذل في ذلك

جهودا مضنية، حتى إذا أنجزه جاء آخر فعرّف به ونسب إليه، فواحد عمل ونصب، وآخر استبد بسمعة هذا العمل وفضله، وشتان بين هذا وذاك.

المستوى البنيوي والدلالي :

دراسة البنية التي يتألف منها المثل الشعبي :

كل جنس أدبي له مضمون يتحدث عنه، وله شكل يمثل فيه الهوية الفنية، ويعكس النظام الكلامي له، ومعرفة النظام تعرفنا بمفتاح سرّ أسلوب هذا الجنس من الأدب الشعبي، " ومما يدل على أصالة الذهنية الشعبية، وصدق إبداعاتها الفنية، أن أسلوب الأمثال الشعبية، يشبه أسلوب الألفاظ الشعبية ... والمبدع الشعبي يجد صعوبة في التعبير عن حاجته بأسلوب غير متوازن ... بل كان يعتمد إلى نظام من الكلام يقوم على الملاءمة اللفظية المنسجمة، أي على الموازنة بين عدد الألفاظ في كل جملة يتألف منها اللغز أو المثل، وكلما تقارب عدد ألفاظ الجملة كان عددها أكثر.

ووجد الكاتب في الأمثال الشعبية أن عدد الجمل أو الوحدات الكلامية القصيرة المتوازنة معاً أكثر من الجمل الطويلة غير المتوازنة، من حيث عدد ألفاظها التي تشكل كنهها. ولكن هذا لا يعني أي توازن...، لأنه لم يعثر مثلاً إلا على نص واحد في هذه المجموعة، يتألف من جملتين (وحدتين)، ليس في الجملة إلا لفظ واحد، وهذه الجملة هي هذا المثل : (الشركة هلكه)، والكاتب لا يريد إلا المفهوم النحوي قدر ما يريد المفهوم الأدبي، بحيث أن المبلغ أو المرسل، يتوقف على ما بين اللفظين المسجوعين، مما يدل على أنه توهم لأن المثل عبارة عن جملتين اثنتين، لا جملة واحدة. هذا التوقف ناتج عن صوت موسيقى تردد في حرفين متجانسين هما : "كة" هو الذي جعله يذهب تاء ثنائية لهذا الجملة أدبياً"²².

أسلوب الأمثال :

يتركب المثل من :

جملة واحدة تكون مرسلّة في العادة أي (خالية من الإيقاع) مثل : " الزواج سترّة " لأن السجع يفترض وجود وقفين من جنس صوت واحد يتكرر مرتين أو أكثر. أو مركب من جملتين اثنتين مسجوعتين أو مرسلتين مثل : " زوج احناش في غار، ولا زوج بنات في دار" — " شاور مرتك وخالف رايتها ".

أو يكون مركبا من ثلاث جمل أو أربع مسجوعة مثل : قالت البومة، أنا خير من ثلاثة : " اللي قال كلمة وما وقّاه، واللي دار قصعة وما ملاها، واللي كبرت بنتو وما عطاها "، وما يتجاوز ثلاثة جمل فهو قليل مثل : " إذا عاد الكلب عواق، والراعي سواق، والمرا واقفة على الطلاق، فذاك افلاس لسواق، وإذا عاد الكلب نباح، والراعي سراح، والمرا تخدم في الصلاح، فذاك الرزق جا لمراح ".

وتركيب الجمل في الأمثال الشعبية الجزائرية يختلف من حيث عدد ألفاظ كل جملة، إذ يتركب المثل من جملة واحدة، فعادة ما تكون مرسلّة أو موقّعة، إذا تألفت من لفظتين أو ثلاثة ونادرا ما تزيد عن ذلك .

أمّا المرسلّة فمثل : الزواج سترّة — البنات عمارة الدار ونعني بها المثل المختصر العادي إذ لا يخضع للتكلف البلاغي من جناس أو سجع .

وأمّا الموقّعة فمثل : الخطّاب رطّاب — العروسة أخبارها مدسوسة. وفي ذلك لمسة من الرتبة الجناسية والسجعية والنغم الموسيقي كما ورد في الأمثلة السابقة .

وإذا بلغت أربعة ألفاظ أو أكثر، ففي العادة لا تكون إلا موقّعة (مسجوعة)، ومركبة من جملتين : مثل : أبي ما اخرق لي، وراجلي ما علق لي — ايروحو أيام لحديدات، وايجو أيام لوليدات.

وسبب قلة الجمل الطويلة في المثل الشعبي، واقتصاره على الجمل القصيرة هو أن طبيعة المثل يقتضي الإيجاز الذي يتيح له السيولة والذيع، وبالتالي يرفض كثرة الجمل وطولها.

والأمثال الشعبية بحكم طبيعتها الروائية، التي تستدعي الحفظ والنقل الشفوي، تقوم جملها على شيء من التوازي والتوازن معاً، الذي ييسر الحفظ والنقل للسهولة والبساطة لتكون في متناول من يريد ذلك

فالمثل : " الزواج سترة، أو الخطاب رطاب، أو اللي خلف البنات ما مات ". أيسر نقلاً وأسهل رواية وأكثر قابلية للذيق والانتشار، من قولهم مثلاً : "زواج ليلة يستاهل تفكير عام" أو "اللي ما عندوش ابنت ما عرفوه وين مات" أو المثل : " أنا نجري له باللقمة لفمه، وهو يجري لي بالعود لوجهي "، ويقال بصيغة أخرى "يجروله عن قبر أمه وهو هارب بالفاس"

على الرغم من أن المثل الأخير متساو العدد من الألفاظ في الجملتين المركب منهما. إلا أن كثرة الألفاظ (5+5)، وخلو الجملتين من السجع والإيقاع، جعلاً هذا المثل عسير الرواية نسبياً، على عكس المثلين قبله، فكأنهم يتحاشون الألفاظ الكثيرة في المثل الشعبي وهذا كله من فنون الإبداع والمخيال الشعبي.

وعدد الألفاظ داخل جملة واحدة، أو داخل جملتين متقابلتين، أو أكثر، لا يعني شيئاً كثيراً إذا اختلف، و في المقابل : لو كتب كاتب فكرة في جملتين متساويتي العدد من حيث الألفاظ، لما كان لهاتين الجملتين من الناحية الجمالية وقعا كبيراً في النفس، إذ لم يكن هناك وجه شبه أو تكلف أو مماثلة، بحيث يشبه القسم الأول الثاني، والثاني الثالث، والثالث الرابع، ويكون بتكرار بعض الألفاظ ذاتها طوراً، وباختيار الألفاظ التي تتلاءم فيما بينها طوراً ثانياً²³.

خاتمة :

وختاماً يمكننا القول إن المبدع الشعبي . السوفي . كان ذا مخيال جوال، إذ عرف كيف يختار أمثاله ويبنى نسيجها بناءً محكماً ، جاعلاً نصب عينه ثلاثة عوامل أساسية وهي : (أصول المثل، وجذوره الضاربة في عمق التراث، ثم البنية البلاغية من إيجاز

وسجع وصوت وجناس ...، ثم المعجم والدلالة بكل مستوياتها وأبعادها). وهذا ما جعل أغلبها أصيلا وفصيحا.

الهوامش والإحالات :

- ¹ - سورة البقرة الآية 31.
- ² - ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأفيقي المصري، لسان العرب، دار صادر بيروت لبنان ط1، سنة 1968، ج11، ص610.
- ³ - سورة النحل الآية 60.
- ⁴ - أبو يحيى محمد بن صمداح النجيبى مختصر الطبري، دار البيان الحديثة، القاهرة، مصر، ط1، سنة 2006، ص 273.
- ⁵ - سورة محمد الآية 15.
- ⁶ - عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية، دراسة تاريخية تحليلية، دار الفكر دمشق، سوريا، ط1، سنة 1998، ص 13.
- ⁷ - سورة البقرة الآية 61.
- ⁸ - عبد المجيد قطامش، مرجع سابق، ص 15.
- ⁹ - الزمخشري جار الله، الكشف، مطبعة دار الفكر بيروت لبنان (د. ط. د ت)، ج1، ص 195.
- ¹⁰ - عبد المجيد قطامش، مرجع سابق، ص 15.
- ¹¹ - الشيخ حامد عوني، المنهاج الواضح ج/ 139 نقلا عن محمد بكر إسماعيل في الأمثال القرآنية، دار بوسلامة تونس، (د. ط. د ت)، ص 20/15.
- ¹² - رباح العوي، أنواع النثر الشعبي الجزائري، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، (د. ط. د ت)، ص 41/39.
- ¹³ - حلمي بدير، أثر الأدب الحديث، دار الوفاء، مصر، دون ط، سنة 1997، ص 33.
- ¹⁴ - عبد المجيد قطامش، مرجع سابق، ص 30.
- ¹⁵ - عبد المجيد عابدين، الأمثال في النثر العربي القديم، دار الوفاء مصر، (د. ط. د ت)، ص 158.
- ¹⁶ - حلمي بدير، المرجع السابق، ص 37/36.
- ¹⁷ - عبد المجيد قطامش، مرجع سابق، ص 31/30.
- ¹⁸ - أبو الهلال العسكري، جمهرة الأمثال، دار ابن حزم، لبنان، ط1، سنة 2008، ص 200.
- ¹⁹ - عبد المجيد قطامش، مرجع سابق، ص 33.
- ²⁰ - رباح العوي المرجع السابق، ص 75/72.

- ²¹ - أحمد بن نعمان، سمات الشخصية الجزائرية، دار الأمة، ط1، (د ت)، ص 347.
- ²² - أنظر لخضر لحيتيم، الأمثال الشعبية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، (د ط، د ت) ص 25.
- ²³ - عبد الملك مرتاض، الأمثال الشعبية الجزائرية (الأمثال الزراعية بالغرب الجزائري)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1982، ص 111/112.